

منهج الخياط في علم الكلام (من خلال كتاب الانتصار)

أ.د. مختار محمود عطا الله^(*)

مقدمة :

هناك نوع من التأليف الكلامي الاعتزالي يصاغ النص فيه صياغة (تناظرية) تتعمق فيه فكرة (الرد) ويختفي فيه المنهج التقليدي في التأليف سواء من حيث التبويب وترتيب القضايا الكلامية، أو من حيث النمط الشكلي للحوار، فالمحاور - هنا - غير متخيل وقد حفظ لنا من هذا النوع كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع للقاسم الرسي (معتزلي شيعي متوفي ٢٤٦هـ) والرد على الفرق الثلاث من النصاري لأبي عيسى الوراق (٢٤٧هـ) ومنها كتابنا الانتصار والرد على ابن الروندي^(١) الملحد لأبي الحسين الخياط (٣٠١هـ) وهو الذي سأتناوله بالعرض والنقد في هذا البحث.

وسوف أقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسية: القسم الأول "دراسات حول إشكاليات الكتاب" أحاول فيه مناقشة أهم القضايا التي تثيرها القراءة

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .

(١) اختار نيبرج محقق كتاب الانتصار كتابة الكلمة على هذا النحو، واعتمد البحث الطريقة نفسها. غير أنني سأحافظ في النصوص المنقولة على اختيارات مؤلفيها بين "الروندي" و"الراوندي"، و"الريوندي".

الفاحصة له من خلال الدراسات الوفيرة التي عرضت له من قريب أو بعيد،
والقسم الثاني "العرض التحليلي" وفيه سأقدم عرضاً للكتاب من حيث منهجه
وقضاياه متبعاً المنهج الوصفي التحليلي. والقسم الثالث "النقد الفني" وفيه
سأقدم بعض المواقف النقدية للكتاب في منهجه وقضاياه كذلك.

القسم الأول : دراسات حول إشكاليات الكتاب

نعرض في هذا القسم من البحث لأهم المشكلات التي تتعلق بدراسة كتاب الانتصار للخياط وسنحاول تقديمها في هيئة استفسارات مع الإحالة إلى مواضع المعالجة والآراء في المصادر العربية القديمة والحديثة.

١- ماذا قدّم كتاب الانتصار للتعريف بالخياط؟

ينتمي أبو الحسين الخياط إلى مدرسة بغداد الاعتزالية ويعده الباحثون رأساً لهذه المدرسة إلى جوار بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) وثمامة بن أشرس (بعد سنة ٢١٠هـ) وأحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠هـ) وأبي موسى المردار (٢٢٦هـ) وأبي القاسم البلخي (٣١٩هـ)، وغيرهم. وقد حاول الدكتور أحمد محمود صبحي أن يستخلص أهم ما ميزهم عن البصريين فاتحصر ذلك عنده في شيئين: الميل إلى التشيع، واعتبار القول بخلق القرآن من أصول الدين.^(١) ويتردد في كتب التراجم والطبقات الكلام عن الخياط مرتكزاً على ثلاثة محاور رئيسية هي:-

١- ما انفرد به الخياط عن سائر المعتزلة واستحق لأجله أن يكون له مدرسة خاصة به يطلق عليها "الخياطية" ويدور ذلك حول مقولات ثلاث: الصفات عين الذات، ولو لم يقتل المقتول لعاش، وشيئية المعدوم^(٢) أو جسميته في (الفرق بين الفرق)^(٣) حتى سُمّي أتباعه بالمعدومية.

(١) د. أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، الجزء الأول (المعتزلة) مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م ص ٢٦٣ إلى ص ٢٦٧.

(٢) راجع في ذلك: المرجع السابق، ص ٢٧٥، وما بعدها.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد زاهر بن الحسن الكوثري، القاهرة، ١٣٦٧=١٩٤٨م.

٢- براعته في معرفة المذاهب، فهو وصف لآزم للخياط حيثما ذكر في كتب التراجم أو في كتب المعتزلة^(١)

وإن كان هناك من الباحثين من تتبع ما نقله الخياط عن "الدهرية" وأجري دراسة حوله واستنتج عدم دقة الخياط فيما ذكره عن آرائهم^(٢). ولكن يبقى أن كتاب الانتصار زاد من صحة ما عرف عن الخياط من دراية بمقولات أصحاب المذاهب والتيارات الفلسفية المختلفة مما جعل محققه الدكتور البير نصري نادر يقول: (ومن مطالعة كتاب الانتصار يتبين لنا أن الخياط كان ملماً بمختلف آراء المتكلمين في عصره)^(٣)

٣- جهوده في الرد على ابن الروندي، فلا تكاد تجد من يترجم للخياط دون أن يذكر ردوده على ابن الروندي، حتى غدا أحدهما لا يذكر إلا مع الآخر يقول القاضي عبد الجبار - مثلاً - (أبو الحسين الخياط كان عالماً فاضلاً من

(١) انظر في ذلك:- ابن المرتضى "أحمد بن يحيى" باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل، تصحيح تومارنلد، دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن، ١٣٣٦هـ، ص ٨٥ - القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة جمع ابن المرتضى، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية، ١٩٨٢ ص ٤٢ - وانظر في (الانتصار) المواضع التي دافع فيها الخياط عن آرائه الخاصة في الصفحات ٩٩، ٣٦، ٣٥، ٢٢.

(٢) انظر: حسني يوسف الأطير، المذهب الدهري عند العرب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م

من ص ٤٥ إلى ص ٥٥.

(٣) البير نصري نادر، فلسفة المعتزلة. فلاسفة الإسلام الأسبقين، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٥٠م، ٣٢/١ وقرن له أيضاً: أهم الفرق الإسلامية السياسية والكلامية، بيروت، دون تاريخ، ص ١٠٢.

أصحاب جعفر، وله كتب كثيرة في النقوض على ابن الروندي وغيره^(١) ومما لا شك فيه أن لكتاب الانتصار دوراً مهماً في تمكن هذه الفكرة لدى الدارسين. يقول الدكتور عبد الستار الراوي: (وضحت في هذا الكتاب مقدرة الخياط الفائقة، فرد على كتاب ابن الروندي فقرة فقرة وكلمة كلمة)^(٢) فكان لهذه البراعة دور في شهرة الخياط بردوده على ابن الرواندي، ولزوم ذلك له.

٢- ابن الروندي، وعلاقته بالمعتزلة:

من القراءة العجلى للانتصار وللوهلة الأولى يعلم القارئ أن ابن الروندي شخصية مثيرة للجدل في الأوساط الكلامية عموماً والاعتزالية على وجه الخصوص وبحسب كتاب الانتصار نعظم عن ابن الروندي الآتي:

أ- أنه كان معتزلياً فخرج عليهم فبادلوه العداوة.

ب- أنه كان يعتمد على آراء المعتزلة وبراهينها وحججها في تناوله لقضايا علم الكلام، ويعيد صياغة هذا المنتج العقلي الاعتزالي ليحاربهم به ويجعله حجة له عليهم في الهجوم.

ج- شيوع القول بإلحاده وكفره وطعنه في الإسلام.

٣- المعتزلة وسياسة الطرد:

يثير كتاب "الانتصار" للخياط ملاحظة مهمة عند قراءته، هي تتعلق بحركة التطهير التي مارستها المعتزلة بين أتباعها، وقيام هذه الفرقة بطرد من يخرج عن إطارها في جانبه الاعتقادي. وهل تعني هذه الحركة بمظهرها الحاد الذي

(١) القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص ٢٩٦.

(٢) د. عبد الستار الراوي، مدرسة بغداد المعتزلية الكلامية في القرن الثالث الهجري.

رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، ربيع

١٩٧٤م، ص ١٦٣، ص ١٦٤.

يفهم من التراث الاعتزالي ومن التاريخ لها أن المعتزلة - وهم أنصار التفكير العقلاني الحر مارسوا - في داخل دائرة جماعتهم - نوعا صارخا من قهر الحريات وتكميم الأفواه؟ وهل تتضاف هذه الحركة "القمعية" إلى الممارسة السياسية التحكيمية في محنة خلق القرآن لتحقيق إدانة المعتزلة دعاء الحرية بنقيض ما يدعون إليه ؟

بداية أود التنبيه إلى أن ظاهرة ابن الروندي تمثل نموذجا واضح الدلالة على المدنية الإسلامية السمحة التي كانت - كما يعبر سليم خياطة - تأذن لأمثاله بهذا الاجترار على عقائدها والتقص في تفكيرها ودينها، وهي ساكنة هادئة تؤلف الكتب ردا عليه، ودحضا لما انهال به عليها من حامي اللطمات. وإن تاريخ المدنيات القديمة لا يروي لنا سيرة أي جرئ متهور بلغ من تهوره إلى الحد الذي بلغ صاحبنا ^(١)

أما بالنسبة إلى المعتزلة خاصة فإن الظرف التاريخي الذي ظهر فيه جيل المارقين عليها كأبي عيسى الوراق (٢٤٧ هـ)، وابن الروندي (٢٥٠ هـ) وغيرهما لابد أن يلقي ضوءا على التوتر الذي أصاب المعتزلة، والحساسية المفرطة إزاء أدنى تهمة تتوجه إليهم أو شبهة تتألمهم. فإن سلطة المعتزلة السياسية وبالتالي الثقافية قد زالت مع بداية عهد المتوكل سنة (٢٣٢ هـ) كما هو معروف ^(٢)، وكان من نتائج هذا أن تنفس خصومهم الصعداء، واتهمروا في مهاجمتهم. فالتيار السلفي، والمدرسة الأشعرية - بعد ذلك -

(١) سليم خياطة، ابن الروندي، ص ٤٥٨ من مجلة المقتطف

(٢) انظر في ذلك: زهدي جاد الله، المعتزلة، مطبعة مصر القاهرة، ١٣٦٦ هـ -

= ١٩٤٧. ص ١٩٧، وما بعدها

- الشيخ موسى السبتي، المحاكمة بين الخياط وابن الروندي، بحث منشور بمجلة

النشاط الثقافي، السنة الأولى، العدد ٨ سنة ١٩٥٨

وغيرهم لم يتوانوا في ذلك وكان هذا طبيعياً للعداء التقليدي ، أما المفاجأة التي تفجرت فهي خروج علماء من المعتزلة عليهم بطريقة فجأة وتطرف ظاهر أخرجهم عن الإسلام كله، وبالتأكيد فإن خروج أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال زاد من حالة التوتر والحساسية، وإن كان رد فعل المعتزلة إزاءه أقل عنفاً للخلاف بين الحالتين.

وتنبئ السياسة التي اتبعها المعتزلة بالآتي :

١- أن المعتزلة شديداً الصرامة فيما يتعلق بمبادئهم المؤسسة لمذهبهم.

٢- أنهم حريصون على الظهور أمام الأمة كأحد التيارات المحافظة.

٣- رفضهم أن يكون مذهبهم مؤهلاً لأن يفضي إلى أي انحراف فكري.

٤- القيمة العلمية لكتاب "الانتصار"

وهنا نجيب عن السؤال الآتي: ماذا أضاف كتاب "الانتصار" لمعرفتنا بعلم الكلام؟ وسنجد أن الإضافات المعرفية لم تكن هي الثمرة الوحيدة وإن كانت أهم الثمرات التي جناها البحث العلمي من نشر كتاب الانتصار، إنما يضاف إليها فوائد تاريخية كثيرة سأسير إليها فيما يلي :

أ- في المعرفة والمعلومات: ظهر كتاب "الانتصار" سنة ١٩٢٥م، ولم يكن هناك مصادر لمعرفة آراء المعتزلة أمام الباحثين سوى كتب المقالات على ما فيها من حشو وتشويه، وكتب التراجم بما ينقصها غالباً من الدقة والتثبت.

فكان كتاب "الانتصار" باعتباره النص الاعتزالي الأصيل الوحيد في غاية الأهمية للتعرف على الصورة الحقيقية للمعتزلة، وكما يقول الدكتور أحمد محمود صبحي (قيمة الكتاب أنه ... أفصح عن حقيقة آرائهم.. أي المعتزلة -

فتضاءلت قيمة آراء البغدادي وغيره من الأشاعرة عن المعتزلة بعد أن كانت المصدر الوحيد لمعلوماتنا عنهم^(١).

ب- في بعض المشكلات حول علم الكلام: طبيعي والكتاب موضوعه علم الكلام أن يلقي الضوء على بعض مشكلاته التي يطرحها المعاصرون حوله، وبخاصة إذا روعي في ذلك التاريخ المتقدم نسبياً الذي صنف فيه، والفترة التي عالج مشكلاتها "النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وما قبله".

ج- إظهار شخصية ابن الروندي، ولفت الانتباه إليه: فلم يكن يعلم أحد عن ابن الروندي سوى ما توافر في كتب التراجم من أنه واحد ممن أُلحِد في دينه مذكوراً مع أبي عيسى الوراق دائماً، وكما يقول باول كراوس: (منذ أن نشر كتاب "الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد" لأبي الحسين الخياط المعتزلي المتوفي سنة ٣٠١هـ برزت شخصية ابن الراوندي الغريبة من الغموض الذي أحاط بها إلى ذلك الحين، واتضح - إلى حد ما - الدور العظيم^(٢)!! الذي قدر لها على شرح الحياة الإسلامية في القرن الثالث الهجري^(٣)).

د- التأكيد على بعض الأغراض التمجيدية للمعتزلة: وواضح أن الكتاب كله نص في تمجيد المعتزلة وبيان حسن إسلامهم وصحة آرائهم، وغير ذلك مما يكثر في الكتاب، غير أن غرضين من هذه الأغراض تحقق لهما من الثبوت الكثير وهما: بيان جهود المعتزلة في نصرة التوحيد، وإظهار براعة المعتزلة وغنائهم في علم الكلام دون من سواهم.

(١) د. أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، الجزء الأول (المعتزلة) هامش ص ٢٧٤.

(٢) هذا الوصف منسجم مع موقف كراوس من ابن الروندي الذي سبق الحديث عنه.

(٣) باول كراوس، كتاب الزمرذ لابن الراوندي، مجلة الأنيب، ص ٢٩.

٦- تأثير ابن الروندي في علم الكلام:

السؤال المطروح في هذا المبحث: هل حال ما أشيع عن ابن الروندي من إلحاد دون أن يكون له امتداد فكري وتأثير معرفي في الوسط الكلامي عبر تاريخه؟ أما الامتداد الفكري وهو المتصل بآرائه الخاصة واعتقاداته التي كان يدافع عنها واعتراضاته على الإسلام فلم يكن له تأثير به على أحد من المتكلمين - وذلك باستثناء قضية واحدة كانت محل خلاف بين الدارسين وهي تأثيره على أبي بكر الرازي الطبيب (٣١٣ هـ) في مسألة النبوة. وسنعرض لها بالتفصيل بعد قليل. وأما التأثير المعرفي المتصل بحكاية مقالات أصحاب الملل والنحل، فإن البحث في ذلك قد أثبت أن له تأثيراً واسعاً على أغلب المؤرخين للديانات والتيارات من علماء الكلام. وهذا ما سنقدم أدلة عليه لاحقاً.

أ- الامتداد الفكري لابن الروندي: ذكرت أن قضية واحدة انتشرت في كتب الكلام القديمة وفي كثير من الدراسات الحديثة القول بتأثير ابن الروندي فيها على أحد أعلام الحضارة الإسلامية وهو أبو بكر الرازي الذي ولد - بحسب أرجح الرويات - في السنة التي توفي فيها ابن الروندي، أي عام (٢٥٠ هـ)^(١)، لتهيأ له الفرصة للاطلاع على كتب ابن الروندي قبل ضياعها، أو بالأحرى أضاعتها.

(١) انظر في ترجمته: - ابن النديم، الفهرست، القاهرة، ١٣٤٨ هـ ص ٤١٥.

- ابن خلكان وفيات الأعيان، تحقيق محمد محي الدين، القاهرة، سنة ١٩٤٩.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، القاهرة، الطبعة الأولى، ٣٥٥/٤.

- الدكتور عبد اللطيف العبد، الفكر الفلسفي في الإسلام، دار الثقافة العربية،

القاهرة، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م، ص ٢٠.

المثبتون لتأثير ابن الروندي في أبي بكر الرازي في الموقف من النبوة ينطلقون من مسلمة أنهما يتفقان معاً على نفي النبوة. ثم يتمسور مواطن الشبه في الأدلة والبراهين المقدمة منها لإثبات التأثير. الأول في كتابه "الزمردة" والثاني في كتابه "مخاريق الأنبياء".

أما النافون لهذا التأثير فهم اتجاهان: الأول، ينفي إصاق تهمة إنكار النبوة ومن ثم الإلحاد؛ على أبي بكر الرازي، لينتفي تبعاً لذلك التأثير على فرض ثبوت التهمة على ابن الروندي.

أما الاتجاه الثاني ويمثلة باول كراوس فإنه يثبت ما نسب إلى أبي بكر الرازي، ولكنه يستبعد أن يكون هناك تأثير من ابن الراوندي عليه، ويمكننا أن نجمع أدلة نفاة التأثير في النقاط المركزة الآتية:-

١- اختلاف الموقف العام من قضايا الأكوهية، ودور العقل فيها.

٢- اختلاف منهجية تناول اختلاف الانتماء الفكري بين الفلسفة والكلام.

٣- اختلاف الروافد الثقافية بين الدين والعلم.

ب- الامتداد المعرفي لابن الروندي في مقالات الفرق والمثل: وهذه نقطة اتفاق كبري بين الدارسين نظراً لتواتر الشواهد على النقل مما كتبه ابن الروندي عن الديانات والتيارات المختلفة.. يستوي في ذلك علماء من أهل السنة مع الأشاعرة والشيعة، الكل تأثر بما سطره ابن الروندي من مقالات. وبالتأكيد سيكون النصيب الأكبر لهذا القول مما ينسبه للمعتزلة وأعلامها، وسيكون المعنيون بذلك هم خصوم المعتزلة من شتى الفرق.

٧- ظاهرة الرد على ابن الروندي ودلالاتها:

لا تكاد تجد ذكراً لابن الروندي عند الترجمة لأحد الأعلام إلا في معرض مدح هذا العلم بما بذله من جهد في الرد عليه. وقد شملت هذه الملاحظة أباً الحسين الخياط كما سبق، وإن كان لهذه الملاحظة من دلالة فهي التنبيه على ما لكتب ابن الروندي من أهمية في الاتجاه المضاد للحركة الفكرية والحضارية الإسلامية، وما أحدثته في عصرها وما تلاه من عصور من إثارة بعض القضايا المهمة المثارة حول الإسلام، وشحذ همم علمائه للتصدي لهذه الشبهات التي كانت موضع عناية مفكري الإسلام في القرنين الثالث والرابع كرد فعل لآراء ابن الروندي (سلباً أو إيجاباً هجوماً أو تأييداً، وكلاهما في نهاية التقدير سواء) ^(١). فمن "الانتصار" ومن غيره من المصادر تبين أن لابن الروندي عدة كتب حملت بهذه الشبهات من أهمها ما يلي:-

١- التاج: حاول فيه إبطال حدوث الأجسام، وزعم أنه ليس في الأثر دلالة على مؤثر، ولا في الفعل دلالة على الفاعل، وأن العالم لم يزل لا صانع له ولا مدبر ولا محدث ولا خالق، وأن من أثبت للعالم خالقاً قديماً ليس كمثله شيء فقد أحال وناقض.

٢- التعديل والتجويز: ومن عنوانه يعرف معناه حيث ورد عن المعتزلة مصنفات بهذا العنوان كالجزء السادس من موسوعة المغني للقاضي عبد الجبار. فهو في "العدل" ليجتمع له تناول الأصل الثاني بعد أن تناول الأصل الأول في (التاج). قال عنه الخياط (زعم فيه أنه من أمراض عبيده وأسقمهم

(١) د. عبد الرحمن بدوي، الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م،

فليس بحكيم فيما فعل بهم ... وأنه ليس بحكيم من أمر بطاعته من يعلم أنه لا يطيعه، وأنه من خلد من كفر به وعصاه في النار طول الأبد غير حكيم^(١).

٣- الزمرذ: وهو من أشهر كتبه، وموضوعه المعجزات، ودلائها على النبوة قال الخياط (ذكر فيه آيات الأنبياء عليهم السلام.. فطعن فيها وزعم أنها مخاريق، وأن الذين جاءوا بها سحرة ممخرقون، وأن القرآن كلام غير حكيم، وأن فيه تناقضاً وخطأ وكلاماً يستحيل)^(٢).

٤- الدامغ: وهو كتاب خصصه للطعن في القرآن الكريم، وقد أورد منه القاضي عبد الجبار مقتطفات رد عليها في الجزء السادس عشر من المغني وإعجاز القرآن^(٣). وذكر منها مقتطفات كذلك ابن الجوزي في كتابه "المنتظم في تاريخ الأمم"، وقد جمعها هرتر مرفقة بترجمة لها. ذكر ذلك باول كراوس في مقالة "ابن الراوندي"^(٤).

٥- وله كتب كثيرة أخرى يفهم موضوعها من معنى عنوانها منها: نعت الحكمة، والفريد، والتصفيح، والزينة، وغيرها كثير^(٥). حتى قيل إن مصنفاته بلغت نحو مائة وأربعة عشر كتاباً^(٦).

(١) الانتصار ص ١٢.

(٢) ذكره الخياط في الانتصار ص ١٢، والقاضي عبد الجبار في التثبيت ٥١/١.

(٣) القاضي عبد الجبار، المغني، الجزء السادس عشر (إعجاز القرآن) تحقيق أمين الخولي، القاهرة، دون تاريخ الصفحات ١١٢، ١٢٣، ١٢٤، ٢٠٢. وغيرها كثير.

(٤) ضمن كتاب "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" ص ٧٧.

(٥) انظر ممن ذكر هذه الكتب :

حاجي خليفة، كشف القنون ص ٩٢.

نيبرج، مقدمة كتاب الانتصار من ص ٣٣ إلى ص ٣٦.

(٦) ذكره السيد محمد باقر القنوجي في كتابه "روضات الجنان" الجزء الأول ص ٥٤. وابن خلكان في "وفيات الأعيان"، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٦٧هـ -

١٩٤٨م ٤٣/١.

هذا بالإضافة إلى كتاب فضيحة المعتزلة الذي يمثل أحد المحاور الثلاثة الرئيسية التي بني عليها الحوار مع كتاب الانتصار وهي: كتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ، وكتاب فضيحة المعتزلة لابن الروندي، ثم "الانتصار" للخياط.

القسم الثاني : عرض تحليلي لكتاب "الانتصار" للخياط

نختار في هذا القسم من البحث ثلاثة عناصر نتناولها بالتحليل هي :
المنهج.. القضايا.. الآداب.

أولاً : منهج الخياط في مجادلة ابن الروندي :

يدخل في تحديد منهج البحث الغاية التي يتوخاها منه صاحبه، والغاية المركزية من كتاب "الانتصار" هي تبييض صفحة المعتزلة، وتنصيح تاريخهم وإذاعة أمجادهم الفكرية والعلمية ونشر ما لهم من مآثر وأياد بيضاء على الحضارة الإسلامية، و يثار سؤال هنا ؟ هل حتم الظرف التاريخي الذي صنف فيه "الانتصار" نشر مثل هذا العمل لتحقيق شيء من هذه الغايات ؟ ويكتسب هذا السؤال وجاهته إذا علمنا بحسب ما انتهت إليه الدراسات المعاصرة أن الكتاب صنف بعد أكثر من عشرين سنة من تأليف ابن الروندي لكتابه "فضيحة المعتزلة".

نعم.. إن هناك تطورات سياسية واجتماعية قد حدثت في فترة ما بعد تأليف الجاحظ لفضيلة المعتزلة، أدت إلى أن أصبح عرض المعتزلة نهياً لكل من هب ودب، فقد انتهت ولاية آخر الخلفاء تعاطفاً معهم، وهو المعتصم وتولي المتوكل الذي أزال سلطان المعتزلة، ورد على أهل السنة ما كانوا يتمتعون به من مكانة وأذهب عنهم الضيم الذي لحق بهم.

كتب الجاحظ فضيلة المعتزلة في عز مجد المعتزلة، وكتب ابن الروندي فضيحة المعتزلة في قمة اشتعال الهجوم الضاري عليهم، وكتب الخياط "الانتصار" في مرحلة التقاط الأنفاس ومحاولة إعادة تصحيح الصورة ودرء الشبهات، وربما يكون في تحديد هذه الأحداث بالتواريخ سلسلة مزيد إيضاح.

سنة ٢٣٠هـ ألف الجاحظ "فضيلة المعتزلة".

سنة ٢٣٢هـ تولى المتوكل الخلافة.

سنة ٢٤٣هـ ألف ابن الروندي "فضيحة المعتزلة".

سنة ٢٥٠هـ توفي ابن الروندي.

سنة ٢٥٥هـ توفي الجاحظ

حوالي سنة ٢٦٥هـ ألف الخياط "الانتصار"^(١).

أردت أن أثبت هذا ليصبح مبرراً لدينا الشعور بالظلم الذي يسيطر على الخياط بطول الكتاب يقول الخياط ساخطاً على تطور الأحداث: (يقال له : لولا انتكاس الدهر بالناس لم يكن مثلك يقول لإبراهيم: إنه يتعاطي تصحيح أمر، ثم يعود عليه يفسده)^(٢).

ودائماً يأتي السجل على النحو التالي :

١- قول صارخ مثير واضح التعارض مع العقل والدين منسوب للمعتزلة لابن الروندي.

٢- تكذيب عام، واتهام بالتزوير وتعمد التشويه من قبل الخياط.

(١) الانتصار، ص ٣١.

(٢) الانتصار، ص ٢٥.

٣- إقرار بالقول الأصلي مع تأويل حسن لتحقيق البراءة من قبل الخياط.

ومن أجل تحقيق أغراض الكتاب في ضوء هذه المعطيات السياسية و الاجتماعية سلك الخياط نمطين متميزين في حوارهِ مع ابن الروندي : الأول النمط "الجدلي" الذي يستعمل فيه المحاور وسائل إثبات الغلبة و الإفحام وإحراج "قطع" خصمه أمام المتلقي، والنمط الثاني "موضوعي" نناقش فيه الخياط المسائل المثارة ووظف براعته في إثبات براءة المعتزلة مما يشنع به عليهم ابن الروندي. وسأعرض لهذين النمطين بشيء من التفصيل:

أ - طرائق الجدل و الإفحام

وهي منتشرة في كل صفحات الكتاب، وقد انحصرت عندي في سبع أنكرها واحدة واحدة مع التمثيل لكل منها بمثال أو اثنين تجنباً للإطالة والتكرار:

١- المضاهاة: و يقصد بها صنع مقابل موضوعي لقول الخصم مع بنائه شكلاً وصورة وصياغة على نمط هذا القول نفسه بهدف بيان أن الخصم أولي بهذا القول من المعتزلة، ولتحقيق نوع من التكافؤ في الرد.

ففي حديث ابن الروندي عن معتزلة بغداد قال ابن الروندي: (وهؤلاء سقاط جداً، ولكن قد حكيت عن المردار والقصبي في صنعتهما وقتلتهما فليس بمستكثر أن نحكي عن قاربهما). فكان المقابل لهذا الكلام بعد أن نقض الرأي المثار (قد كان تعرضنا لنقض كتاب ساقط مثلك ضرباً من العناء ولكن قد نقضنا على أستاذك أبي حفص الحداد وأبي عيسى الوراق مع خساستهما وضعتهما: فليس بمستكثر أن ننقض على من قاربهما من أتباعهما) (١).

(١) الانتصار، ص ٧٣.

٢- الدفاع عن المعتزلة بالتشنيع على الرافضة: ويقصد بذلك أن الخياط يترك المسألة موضع المواخذة فلا يجعلها موضوعه، ويتجاوزها إلى الهجوم الشديد بالمقابل الموضوعي والتهمة المناظرة على الخصم ومن يشايعهم من الأعلام فيكسب بذلك تعاطف القارئ لا لبراءة صاحبه وإنما لما ألصق بخصمه من فضائح.

ففي رده لتهمة النظام في قوله في النار الثقيل منها والخفيف بقول الديصانية^(١). قال الخياط مخاطباً ابن الروندي (فكيف يقرّف من قاله بقول الديصانية لولا جهل صاحب الكتاب بل المقرووف بقول الديصانية شيخ الرافضة وعالمها هشام بن الحكم المعروف بصحبة أبي شاعر الديصاني الذي قصد إلى الإسلام فطعن فيه من أركانه)^(٢).

٣- العودة بعلم الخصم إلى المعتزلة: وهنا يعمل الخياط على التقليل من عقل ابن الروندي بإثبات أنه غير قادر على إنتاج الآراء والحجج والبراهين، وذلك بإرجاع كل ما يتحجج به ابن الروندي إلى العبقرية الاعتزالية بهدف الحد من مظنة إعجاب المتلقين به.

فقد عقب الخياط على بعض ما أورده ابن الروندي من احتجاجات على أبي الهذيل العلاف (اعلم - علمك الله الخير - أن الكلام الذي ذكره صاحب الكتاب، والتشبيه بالحجر كلام لأبي موسى كان يسأل عنه في منزل ثمامة.

(١) إحدى فرق الثنوية ينتسبون إلى أبي شاعر الديصاني الذي صلبه المهدي العباسي.

راجع في بعض آرائه وما خلف فيه بقية الثنوية المراجع الآتية

القاضي عبد الجبار، المغني، الجزء الخامس عشر (النبوة) ص ١٦، ص ١٧

القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ٢٢٥/١

الشهرستاني، الملل والنحل، ٥٠/١

(٢) الانتصار، ص ٣٧

فويل صاحب الكتاب؛ كيف يعيب المعتزلة وهو يلجأ في كتبه إلى كلامها ومساثلها وجواباتها عجزاً منه عن أن يأتي بكلام غير كلامها، أو سؤال غير سؤالها^(١).

٤ - الإفحام من كلام الخصم نفسه: وفي هذه الطريقة يفتش الخياط عن آراء لابن الروندي ضمنها بعض كتبه، يكون لهذا الآراء تأثير في نقض ما يورده على المعتزلة من مأخذ وهي طريقة يقف منها الملتقى على مدي مغالطة ابن الروندي بغرض الإساءة للمعتزلة، وفيها مؤشر على غفلته وتناقضه.

يصف الخياط هذا المسلك من ابن الروندي في بداية الكتاب في سياق التعريض به قائلاً: (فضح نفسه بأن وضع عليها - أي المعتزلة - كتاباً كذب عليها - فيه ونحلها ما ليس من قولها. وعاب بعضها بمذاهب هو يقول ببعضها؛ بل يقول بها ويذهب إليها)^(٢)

٥ - التهوين من شأن المأخذ بإثباته - في صورته الأشنع - عند الخصم: وبهذه الطريقة يحاول الخياط إظهار تفاهة ما يتوجه به الخصم إلى المعتزلة من منقصة وذلك ليس بدفعها، وإنما بإثباتها - هي نفسها مع التهويل والتضخيم - على الخصم وأصحابه. وبالمقارنة بينهما يسخط المخاطب على الخصم، وتتضاءل عنده هذه المنقصة بخصوص المعتزلة.

فهو يهون من شأن خطأ المعتزلة - عند مظنة حدوثه - بالمقارنة بالفحش المؤدي للكفر في خطأ الرافضة. يقول الخياط: (فناء الشيء: أين يحل؟ وما أشبه من الفروع التي لا ينقض الخطأ فيها توحيداً ولا عدلاً ليس

(١) الانتصار، ص ٢٠

(٢) الانتصار، ص ١١

كخطأ الرافضة الذي فيه إبطال التوحيد، وجحد الرسالة، ورد الإجماع،
والتكذيب بالقرآن^(١)

٦- إثبات تناقض كلام الخصم مع نفسه: وفي هذه الطريقة يبرز الخياط
أكثر مواضع التناقض في كلام الخصم وأوضحها وأقربها على إظهار سوء
قصده إلى جانب سوء فهمه وهو الموقف الذي من لوازمه سحق المخاطب
بالكتاب على ابن الروندي

وهذا نموذج على تلك الطريقة يقول فيه الخياط: (ثم انظر إلى مناقضة
صاحب الكتاب وقلة تحفظه، وقد زعم فيما مضى من كتابه أن ثمامة ليس
بمعتزلي لأنه (زعم) لا يقول بالمنزلة بين المنزلتين ثم زعم ها هنا أن من
يقول بالماهية من المعتزلة ضرار وحفص وثمامة فجعله معتزلياً بعد أن
أخرجه من الاعتزال ولذلك قيل "ينبغي للكذاب أن يكون حافظاً"^(٢))

٧- إسكات الخصم عن المأخذ بإثبات اشتراكه في القول به: وفيها يرد
الخياط هجوم ابن الروندي على المعتزلة بذكر الأقوال التي صدرت عنه في
موضوع الهجوم، وبيان أنها متطابقة مع ما يعيبه على المعتزلة؛ فيظهر بذلك
ابن الروندي على أنه يشنع على المعتزلة بغرض تشويه صورتهم وليس عن
قناعة بخطئهم وإلا لأقلع هو عن التهمة نفسها.

قال الخياط في دفاعه عن الأسواري في موقفه القاتل بإحالة قدرة الله -
تعالى - على الظلم (وصاحب الكتاب كان يظهر القول بأن الله يقدر على الظلم
والكذب. فإذا قيل له: فما أنكرت أن يفعل ما وصفته بالقدرة عليه من ذلك؟
قال: هذا كلام محال لا وجه له فقد شارك إبراهيم وعلياً الأسواري فيما عابهما

(١) الانتصار، ص ٢٣

(٢) الانتصار، ص ٩٨

به وحكاه عنهما من إحالة وصف الله بالقدرة على إفناء أهل الجنة وإماتتهم لا يحيل القول بأن الله يفنيهم أو يميتهم ومن العجب أنه يعيب قوماً بقول قد شاركهم فيه أو قال بمثله وهذا يدل على حيرته وسوء سريره^(١) هذا وسوف أعرض لاحقاً في الدراسة النقدية لمدي فاعلية هذه الطرائق وقدرتها على تحقيق مطلوبات الحوار.

ب- المسالك الموضوعية للخروج من الدعاوى:

هذه المسالك هي ثمرة الجهد العقلي النقدي الذي بذله الخياط إزاء نصوص ابن الروندي لا لغاية جدلية يريد من خلالها إثبات الغلبة وإحراج الخصم - وإن كانت هذه غاية مطلوبة دائماً - وإنما لغاية علمية برهانية يعمل الخياط على تحقيقها، وهي الاحتجاج العقلاني على فساد ما يقوله الخصم وبطلان نسبته إلى أصحابه وصحة ما يقول به المعتزلة كل ذلك منظور للقضية لا من شكلها وإنما من محتواها ومضمونها.

١- التكذيب وإنكار النسبة: وفيه يطعن الخياط في نسبة المقالة إلى المعتزلي متهماً خصمه بالكذب والانتحال والحمل على صاحبه بالبهتان. ولا يرد الخياط نسبة الكلام لصاحبه من باب التخلص من المأخذ جملة هروباً من مناقشته، وإنما يثبت في معظم الحالات مبررات نفي النسبة وأدلة التكذيب من مضامين المسألة المطروحة ومعانيها.

٢- التفريق بين القول اعتقاداً والقول بحثاً: وهو أحد وسائل الخروج من المأخذ التي اعتمد عليها الخياط في مواجهته لتهم ابن الروندي، ويعتمد على أنه ليس كل ما يصدر عن العالم عند بحثه أو جدله مع المخالفين له من آراء بالضرورة يدخل في اعتقاداته وما يتدين به لله في القضية نفسها.

(١) الانتصار، ص ٢٤

والمذموم من وجهة نظر الخياط وهو ما لا سبيل للدفاع عنه هو أن يكون الرأي عقيدة. أما أن يكون وارداً على سبيل الاحتجاج في الجدل أو التنظير في البحث فإنه مما يمكن الاعتذار عنه. وخاصة - وهذه ظاهرة منتشرة في أغلب الحالات - إذا اقترن ذلك بإعلان التوبة عنه والندم عليه.

ويبدو أن ما كان لا يناظر به وينظر فيه على البور علماء المعتزلة دون الاعتقاد فيه قد احتوي على مقالات شاطحة تتنافى مع أصول المعتزلة وتخرج عن سياقها من جهة وتصطدم مع ثوابت الدين مما جعل الخياط (بهرج) من الدفاع عنه دفاعاً موضوعياً إلى (اختراع) هذه التفرقة. ولذلك قال الخياط: (ولولا أن هذا مذهب لم يكن أبو الهذيل يتدين به ولا يعتقد، وإنما كان يبوره وينظر فيه؛ لذكرت أشياء من القياس كان أبو الهذيل يحتج بها وآيات من القرآن، وأشياء من الإجماع، ولكنه قول ليس يقول به أحد من المعتزلة فنخبر بشبهته في القول به)^(١).

٣- بيان أن المقالة مما يشترك فيه جمهور المسلمين: وفي هذا المسلك ينشد الخياط غاية جدلية بوسيلة موضوعية. فالغاية هي تبرئة المعتزلة مما يشنع به عليهم الخصم والوسيلة هي بيان أن ما يتهمهم به إنما هو شيء لم ينفردوا به، بل يشترك في القول به المسلمون جميعاً. ليخلص من هذا إلى أن سخط ابن الروندي واعتراضه إنما على الإسلام وليس على المعتزلة.

وتجد في مواقف كثيرة في الانتصار مثل قول الخياط (وقول إبراهيم في ذلك هو قول المسلمين جميعاً)^(٢)، وقوله (يقال له: أما ما حكيت عن إبراهيم

(١) الانتصار، ص ٩١.

(٢) الانتصار، ص ٣٥.

أنه كان يحيل القول بأن الله تعالى يقدر أن يخلق الحر مبرداً والبرد مسخناً، فهذا شيء أهل التوحيد كلهم يوافقونه عليه^(١).

٤ - الإيضاح والتأويل: ويعد هذا المسلك مهما إذا نظرنا إلى مرات تكراره في الكتاب، وفيه يعيد الخياط المقالة التي نسبها ابن الروندي للمعتزلة إلى أصلها من كلامهم، ويوضح المعنى المنقول عنهم مع بيان وجه التشويه وموقعه من كلام ابن الروندي، ليخلص للخياط نتيجة مؤداها أن الرأي الذي صدر عن المعتزلة أورده ابن الروندي مشوهاً محمولاً على غير معناه لا عن سوء فهم منه فقط، وإنما في أغلب الحالات عن سوء قصد كذلك. فأما سوء الفهم فيعبر عنه الخياط بمثل قوله (هذا الكلام الذي حكىته عن بشر توهم، ومذهبه غير هذا)^(٢)، وأما سوء القصد فيعبر عنه بمثل قوله (وقد كذب على بشر وحرف عليه قوله في حكايته)^(٣).

٥ - رد القول إلى أصحابه ونسبته إليهم: وفي هذا المسلك من مسالك الخروج من المآخذ يبين الخياط أن ابن الرواندي أصاب في شيء وأخطأ في شيء، فأصابته في أن القول له أصل من علماء الكلام. وخطؤه في نسبة هذا القول إلى المعتزلة. ويصوب الخياط الخطأ بأن يعيد تصحيح نسبة القول لأصحابه. فيبرئ المعتزلة مما يشنع به ابن الروندي عليهم. ويستنبط بالتبعية جهل ابن الروندي بالمقالات وينسبها لأصحابها.

(١) الانتصار، ص ٤١

(٢) الانتصار، ص ٥١

(٣) الانتصار، ص ٥٢

فمن ذلك ما نسبة ابن الروندي إلى النظام من إن الكفر لم يكن كفراً قبيحاً بالكافر، ولكن بالله وحده؛ لأنه إنما كان كذلك بالاسم والحكم، والاسم والحكم من الله لا من الكافر. قال الخياط (هذا قول الضرارية بعينه... لأن قول الضرارية أن الكفر بالله كان كفراً وبه كان قبيحاً، ومعناها في ذلك أن الله أنشأ عين الكفر وأحدثه كفراً قبيحاً. فما يشبه هذا القول من قول إبراهيم نولا جهل المشبه بينهما) (١)

ثالثاً: قضايا علم الكلام ومشكلاته في كتاب "الانتصار"

مس الخياط في الكتاب أغلب القضايا المركزية في علم الكلام، ويتوقع أن يكون للخياط دور في اختيار القضايا التي ضمنها للكتاب بحسب ما يعينه على إفحام الخصم وتحقيق الغاية منه. ولكن الدور الذي قام به اختيار ابن الروندي في "فضيحة المعتزلة" للمشكلات والأعلام التي لها أولوية المناقشة كان ذا أثر كبير في تحديد مضامين كتاب "الانتصار" كذلك. ولا شك أيضاً أن كتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ يدخل كعنصر فاعل في هذا الباب.

وقد نالت قضايا الكتاب قدراً متفاوتاً من العناية، تحكمت فيه العوامل الآتية:

١ - موقعها في دائرة الخلاف بين المعتزلة والرافضة. فالسجل في دوائر الواسعة كان بين من يسميهم الخياط (أهل النظر وأصحاب الكلام) وبين من يسميهم (جهال الرافضة وحشو أهل الإمامة) (٢) معبراً عن المعتزلة من جهة والرافضة من جهة أخرى. ولذلك برزت قضايا مثل التنزيه والتشبيه

(١) الانتصار، ص ٢٩

(٢) الانتصار، ص ١١.

الذي اتسم النزاع فيه "بالعنف" - كما يعبر عن ذلك الدكتور على سامي النشار^(١)، وبرزت كذلك قضايا أفعال العباد، والبداء، والإمامة.

٢ - موقعها في الترتيب التقليدي لعلم الكلام. فقضايا الإلهيات مقدمة على ما سواها، ثم حرية الإرادة الإنسانية، ثم النبوة ودلائلها ... وهكذا.

٣ - مدى تركيز ابن الروندي عليها. ويتعلق بذلك مدى ما ألحقت من ضرر بسمعة المعتزلة، وما أحدثت من هزات في كيانتها. ولذلك يتصدر الأولوية ما يتعلق خاصة بأبي إسحاق النظام لما تميز به من آراء جديدة كقدم العالم مع إثبات الصانع والصرافة وغيرها. ولما احتل من مكانة وسمعة بين أعلام المعتزلة في مرحلة تلمذة ابن الروندي ونشأته العلمية. حيث إنه توفي ما بين (٢٢١ هـ - ٢٣١ هـ).

وأود تسجيل بعض الملاحظات على القضايا التي تناولها الكتاب إجمالاً:

١ - تقوم كثير من الأدلة على أن الخياط تتبع النص الروندي من كتاب "فضيحة المعتزلة" تتبعاً جزئياً تفصيلياً. من هذه الأدلة: ذكر بعض المآخذ والآراء ثم التصريح بالغض عنها أما خوفاً من الإطالة، أو لعدم رقيها إلى مستوى الرد، أو غير ذلك. ومنها تناوله لقضايا فقهية خالصة مما لا غاية للخياط كمتكلم بها. ومنها عدم تبويب قضايا الكتاب وفق المنهج التقليدي للتأليف الكلامي.

٢ - جاءت قضايا الكتاب غير منظمة، فالقضية تذكر مرة ثم تتبعها قضايا متنوعة ثم يعود إليها مرة أخرى، وربما ثالثة. ويختلط الفقه بالكلام، ويسبق الجاحظ النظام أحياناً ويلحقه أخرى، دون مراعاة للترتيب التاريخي

(١) أنظر: د. على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي الإسلام، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢، ١/ ٣٦٤.

حتى يمكن القول بأن الكتاب صنف على غير منهج ضابط للتناول؛ اللهم إلا الالتزام بترتيب ورود القضايا عند ابن الروندي في "فضيحة المعتزلة".

٣ - جمع الكتاب بين صنفين من القضايا: الأول يهاجم به ابن الروندي المعتزلة ويرد عليه الخياط. والثاني يدافع به ابن الروندي عن الرفض ويرد عليه الخياط. وقد استوعب الصنف الأول أغلب الكتاب، والصنف الثاني جاء متردداً بين ثنايا الكتاب، وخصص له الصفحات من ٨١ إلى ٩٠.

القسم الثالث: قراءة نقدية لكتاب الانتصار

جاءت المادة العلمية الخاصة بهذا القسم لتعالج موضوعين رئيسيين في الكتاب هما: أصول البحث وآداب الاختلاف، وتقييم عمل الخياط في إقناع المخاطب بوجهة النظر الاعتزالية. ومن المؤكد أن كتاب "الانتصار" سيكون هو الفيصل في كل التحليلات، وقد يكون من المهم هنا إبداء نوع من التحفظ على الاعتماد في معرفة نص ابن الروندي على كتاب خصمه. ولكن ليس ثمة - في الوقت الحالي على الأقل - بديل لمعرفة هذا النص، خصوصاً إذا كان من كتاب "فضيحة المعتزلة".

أولاً: أصول البحث، وآداب الاختلاف

يعد كتاب "الانتصار" أحد المصادر المهمة للتعرف على جملة الأصول التي كانت تحكم البحث العلمي عند المتكلمين، والآداب التي كانوا يراعونها، أو يرون وجوب مراعاتها عند الاختلاف، وذلك لطبيعته التأليفية التي تعتمد على سوق رأي الخصم والرد عليه، نظراً للغاية منه كذلك التي تتركز حول إحراج الخصم وبيان مروقه عن الدين للتأكيد على براءة المعتزلة مما يلصقه بهم من تهمة، ويشنع عليهم من أكاذيب.

هذا، وقد تمخضت قراءة الكتاب منظوراً إليه من هذه الزاوية عن
الأصول والآداب الآتية:

١ - وجوب المساواة في الاحتجاج للخصمين: أي أن الباحث في
موازناته بين الأطراف المختلفة عليه أن يتخلص من الميل الذاتي لأحدهم في
مرحلة سوق الآراء والحجج والبراهين على الأقل إن كان التخلص من ذلك
على الدوام مستحيلاً، فيسترسل في نقل ما يحتاج به كل طرف؛ دون غمط
أحدهم حقه في ذلك.

٢ - الابتعاد عن اجتزاء النص وبتره:

أي أن الباحث فيما ينقل عن الآخرين من نصوص، وما يروي لهم من
مقالات عليه أن يتم نقوله مهما كانت محتوية على معان تحريماً للأمانة
العلمية. وتشتد الحاجة لهذا الأصل إذا كان البحث من قبيل المناظرات كما هو
الشان في كتابنا "الانتصار". ولا شك أن اجتزاء النص وبتره مطلوب عند
المناظرة طلب الوسائل، إذ به يتيسر على المصنف أن يشوه كلام الخصم،
ويخفي ما لا سبيل عنده لإفحام الخصم بشأنه، إلى غير ذلك من المآرب.

وبتبني وجهة نظر الخياط فيما فعل ابن الروندي بهذا الخصوص يمكن
القول بأن الأخير قد خاض في هذا المنزلق إلى آخره، وقد عبر أحد كبار
الباحثين عن رأيه المتبني لموقف الخياط قائلاً (وقد كان ابن الروندي في
المعتزلة مخرج عليهم فطرده، فألف الكتب في الطعن عليهم وفي الطعن في
الإسلام. ولذلك نراه لا يذكر كلام المعتزلة إلا مبتوراً أو محرفاً، أو هو يذكر ما
يلزم عنه في رأيه)^(١).

(١) د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلاسفية،

ويمكن أن يقال: إن هذا الموقف المنحاز للموقف الاعتزالي الخياطي يعم أغلب الدراسات المعاصرة^(١). ويكاد يعبر هذا الموقف عن القضية بتعبير الخياط نفسه، ولنقرأ ما قاله الخياط مقارناً بما سبق من كلام الدكتور أبوريدة. يقول الخياط (اعلم - علمك الله الخير - أن صاحب الكتاب من شأنه الحكاية للكلام مبتوراً ليوحش جملة الحق عند من سمع حكايته)^(٢).

٣ - وجوب التمييز بين صريح القول وما يلزم عنه:

وهو أصل يهدف إلى الدقة في نسبة الأقوال لأصحابها، وهو يؤثر إحدى مشكلات المنهج الكلامي، حيث درج المتكلمون على ترتيب إلزامات (ضرورية) على أقوال صدرت عن الخصوم، فإذا جاز وضع هذه الإلزامات موضع تلك الأقوال الصريحة في باب النقد والإفساد، فإن ما يرفضه الإنصاف العلمي أن تنسب إلى الخصم على أنها ضمن مقالاته. وهذا ما تمكن الخياط من الكشف عنه في هذا التاريخ المبكر من التأليف الكلامي، ووظفه في نقد كتاب "فضائح المعتزلة" ببيان أن بعضاً مما ورد به ليس مما يقول به المعتزلة، وإنما هو إلزامات رتبها خصومهم على أقوالهم. وبذلك لا يجوز الطعن تأسيساً عليها.

فالخياط في رد قول نسبه ابن الروندي إلى النظام وهو أن الله إذا علم أن فعل شيء أصلح لخلقه استحاله منه تركه؛ استعمل هذا المسلك الموضوعي في تبرئة النظام مما نسب إليه فقال (إن هذا شيء ألزمه أصحابنا لإبراهيم قياساً على قوله في إحالة القدرة على الظلم، ولم يكن بقوله)^(٣)

(١) انظر في ذلك وتفصيله: د. عبد الأمير الأعسم، ابن الروندي في المرجع العربي

الحديثة، ص ٤٩٧.

(٢) الانتصار، ص ٥٢.

(٣) الانتصار، ص ٢٢.

٤ - وجوب الامتناع عن التعميم: فالباحث عليه ألا يعمد إلى الأحكام التي تنطبق على فرادي الناس بخصوصهم فيعممها على المجموع، حيث لا يخفى ما في ذلك من افتتات، حتى لو ربط هذا المجموع رابطاً انتماء لفرقة أو مذهب أو طائفة. فلا ينهض هذا الربط مسوغاً لسحب الحكم أو تعميم المقالة على من لا يستحق.

والجديد في نصوص "الانتصار" بخصوص هذا الأصل أن الناعي على خصومه لازلحاقهم إليه هو ابن الروندي، فقد وضع أول مأخذه على المعتزلة متعلقاً بهذا الأصل من أصول البحث والمناظرة فقال (إني وجدت كثيراً من المعتزلة يستطيرون على جملة الشيعة، ويتسلقون على إبطال حقهم لوصف مقالات لغلاتهم)^(١). ولم يسمح الخياط لنا بمتابعة ابن الروندي في وصفه للمفاسد المترتبة على مثل هذا السلوك، فبين عقب هذا الكلام أن المعتزلة بعيدون كل البعد عن مثل هذا الخطأ، فقال (إن المعتزلة لم تعب جملة الرافضة بقول تفرد به بعضها. هذا لا يفعله عاقل، ولا يصير إليه إلا جاهل، وإنما عابت جملة الرافضة بقولها بالرفض الذي استوي فيه جميعها، ثم عابت كل فريق منها بما تفرد به دون ما سواه، وكيف تفعل المعتزلة ما حكاها صاحب الكتاب عنها، وفي دينها "ألا تزر وازرة وزر أخرى")^(٢).

٥ - الاحتكام إلى المصدر في حال التوثيق عند الاختلاف: أي أن المتناظرين إذا تباينت نقولهم عن أحد ممن يتناظرون حول أرائه، فعليهم - وفق هذا الأصل - العودة مباشرة إلى مصدر تنتهي معه أي فرصة للتزيد عليه أو تحريف كلامه. هذا المصدر كما يفهم من كتاب "الانتصار" هو أحد شينيين: إما كتب هذا العلم، أو ما يحكيه عنه تلامذته.

(١) الانتصار، ص ١٢.

(٢) الانتصار، ص ١٣، والآية هي الثامنة والثلاثون من سورة النجم.

فيقرر الخياط هذا الأصل في رده لكلام نسبة ابن الروندي إليه يتعلق بإحالة إعدام الله للأجسام بعد إيجادها. قال الخياط (ثم أقبل على الجاحظ يسبه ويشتمه بما هو أولى به. وهذا كذب على الجاحظ عظيم، وذلك أن قول الرجل إنما يعرف بحكاية أصحابه عنه، أو بكتبه. فهل وجد هذا القول في كتاب من كتبه؟ فإن كتب عمرو الجاحظ معروفة مشهورة في أيدي الناس. أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه؟ فإذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ما قرره به هذا المجان الكذاب، فقد تبين كذبه وبهته وجهله) (١).

٦ - وجوب تحري الدقة في انتقاء الاصطلاحات الدالة: أي أن الباحث في لغته العلمية مطالب بأن ينتقي الكلمات والمصطلحات المعبرة عن المعنى الذي يقول به خصمه دون تعمد الإتيان باللفاظ أخرى محملة بمعان يستنكرها الخصم ويريد هو أن يدخلها في سياق بحثه ليسهل عليه التشنيع على خصمه وتخطئته.

فقد أخذ الخياط على ابن الروندي استعماله لألفاظ موهمة تبدو في ظاهرها مترادفة، ولكنها في دلالاتها الدقيقة ليست كذلك. قال الخياط (ثم إني أعلمك - علمك الله الخير - أن صاحب الكتاب ليس شأنه إلا تلبيس الكلام على سامعيه. حكى عن قاسم أنه كان يقول "من زعم أن الله خلق فساد الزرع فقد كفر"، ليوهم سامع هذا الكلام أن ما حل بالزرع من المصائب من فعل غير الله. وهذا شرك عند قاسم. وقول قاسم وقول جماعة أهل الحق أن الله الفاعل لما حل بالزرع من المصائب. وإنما أبي قاسم أن يسمى تلك المصائب شراً) (٢). فكلية "فساد" التي ضمنها ابن الروندي لنص قاسم الدمشقي تحمل ضرورة معنى الشر الذي ينفيه المعتزلي عن الله. وكلية المصائب التي

(١) الانتصار، ص ٢٤.

(٢) الانتصار، ص ٦٦.

يستعملها المعتزلة لا تتضمن بالضرورة معنى الشر؛ لأنها في حقيقتها وباطنها وغايتها قد تكون خيراً. فجاء استبدال ابن الروندي "فساد" ب "مصائب" قصداً - فيما يري الخياط - إلى إدخال معنى الشريعة في فعل الله ليظهر خروج قاسم الدمشقي عن أصحابه وتناقضه معهم.

وعلى كل حال، وبعيداً عن الحكم على ابن الروندي بمدى التزامه بآداب الاختلاف وأصول البحث العلمي، يمكننا القول بأن ما استخلصناه - وما يمكن استخلاصه بعد - من هذه الأصول والآداب هو أحد أهم عطاءات كتاب "الانتصار" الذي يفتح أمام الباحثين طاقة من ضوء مسلطة على فترة خصبة من فترات الجدل الكلامي، ولكن نصيب منتجها العلمي بهذا الخصوص كان غالباً الضياع.

ثانياً: تقييم جهد الخياط في إقناع المخاطب بوجهة النظر الاعتزالية:

سنركز هنا على المواطن التي تبدو لنا أسباب ضعف حالت دون تحقيق كتاب "الانتصار" الغاية منه، أو على الأرجح أنها من شأنها أن تفعل هذا.

فليس يقتنع المخاطب بأن إثبات أخطاء على ابن الروندي أو الرفض في معرض الرد على تهمة ما - قادر على درء هذه التهمة أو تبرئة المعتزلي منها. ويظل المطلوب بهذا الخصوص دائماً هو الولوج إلى التهمة نفسها، ثم مناقشة محتواها أو نسبتها أو غيره مما يعد عملاً في الموضوع. فمثلاً قال الخياط في الرد على ابن الروندي في قضية المجانسة المنسوبة للنظام (الإيمان عند إبراهيم مخالف للكفر، والعلم عنده ضد الجهل والحب خلاف البغض، ولكنه كان يقول في الجملة: إن أفعال الحيوان جنس واحد. وقد قالت المجبرة بأسرها بأكثر من هذا: زعمت أن المحدثات كلها يشتبه من باب محدث ومحدث، ويختلف من باب كفر وإيمان وطاعة ومعصية وحركة

وسكون، وهذا أغلط مما قاله إبراهيم^(١). فالعبارة الأخيرة فيها الدلالة على المراد هنا، فهو معترف بأن عند إبراهيم غلطاً، وأن ما عند ابن الروندي أغلط منه.

وللخياط محاولات متكررة في الكتاب لإصاق التهمة التي يشنع بها ابن الروندي على المعتزلي إليه؛ ظناً منه أن هذا رد كاف. لكنه عند القيم الموضوعي غير مفيد للخياط في تحقيق غايته من الكتاب. فضلاً عن أنه في كثير من هذه المحاولات تفوته الدقة في حثك أدلة المساواة العقلية مما يتيح للقارئ الفرصة لإدراك المنهج التحكيمي التصفي في إعلان هذه المساواة.

إن الضعف يدب في كثير من براهين الخياط على صحة الرأي المعتزلي الذي ينقله ابن الروندي مشوهاً. لأننا إذا تجاوزنا عن مواضع التكذيب ونفي النسبة والطعن في التوثيق كمسلك (علمي) مانع من الخوض في المسألة، ثم تألمنا المناقشات الموضوعية انطرحت أسئلة عديدة حول تلك المناقشات. فالخياط مثلاً دافع عن معمر بن عباد السلمي إذ نسب إليه ابن الروندي قوله "من زعم أن الله يعلم نفسه فقد أخطأ لأن نفسه ليست غيره، ولا بد أن يكون المعلوم غير العالم"، فاعتمد في دفاعه على أمرين: الطعن في الرواية ورد نسبة هذا الكلام عن معمر. وحجة موضوعية - أو هكذا أرادها - قال فيها (كيف تكون حكايته عن معمر صحيحة؟ والإنسان عند معمر قد يعلم نفسه وليست غيره، فكيف يحيل أن يكون الله جل ذكره يعلم نفسه لأن نفسه ليست غيره؟)^(٢). ويبقى أن يتساءل القارئ عن طريقة القياس التي نفي بها النسبة. وعن مدى اتفاقه أو قناعته بنتيجة هذا القياس، وعن مدى مطابقة هذه النتيجة لواقع أقوال معمر.

(١) الانتصار، ص ٢٩.

(٢) الانتصار، ص ٤٥.

ومن المآخذ التي وقع فيها الخطأ مبالغاته في الحديث عن الأغراض التجديدية لكتابه، ومن ثم إختفاء - أو على الأقل خفوت - مظاهر الموضوعية فيه، مما يدفع المخاطب إلى الشك فيما يقول كما يدفعه هو إلى الشك فيما يقول ابن الروندي. فضلاً عما سبق عرضه من نصوص تقصر علم الكلام والمعرفة بدقيق مسائل التوحيد والدفاع عنه... إلخ. إلى المعتزلة. نصطدم هنا بنص يقول فيه (لو كان شيء من الدين يعلم باضطرار لعلم قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين باضطرار)^(١). فهل هذا التقرير الصعب للعلم الضروري الذي يتقرر في النفس دون تدليل - مما يلقي قبولاً عند القارئ المحايذ، وهو يعلم أن مسألة مصير مرتكب الكبيرة من كبريات المسائل "الخلافة" في علم الكلام؟

إن الخفوت الواضح في روح الموضوعية لدي الخطأ جعله لا يري أو يحاول ألا يري القارئ من العلم إلا ما لدي المعتزلة، ومن العلماء إلا علماء المعتزلة، فيشهد بعضهم لبعض، ويجعل بعضهم يزكي بعضاً. فلفرط الرغبة في إعلاء شأن المعتزلة انحجب عن الخطأ الاستشهاد فضلهم بغيرهم. ولا يعيب أحد على الخطأ نصرته لمذهبه وتحمسه لأصحابه فإن ذلك من طبائع البشر عموماً، والعلماء الجادين خاصة. ولكن تظل الموضوعية مطلباً غالياً وعزيراً في الوقت نفسه. ويقدر القارئ لكتاب "الانتصار" الطبيعة الدفاعية له، في ضوء إدراكه للجو العام الذي صنف فيه بغرض تغييره أو مقاومته على الأقل. وستظل النقوض والاعتراضات بين الطوائف والتيارات الفكرية المختلفة في أي مجتمع وكذلك الردود والدفاعات، وطلب التقييم والمحاکمات بين هذه الطوائف من أهم مظاهر النضج والحيوية في هذا المجتمع.

(١) الانتصار، ص ١١٩.

وبعد: فيمكن تسجيل أهم النتائج التي أسفرت عنه هذه الدراسة فيما يلي:

١ - تحققت بكتاب "الانتصار" للخياط كثير من المآرب العلمية في تاريخ علم الكلام، منها الكشف عن جوانب كثيرة في شخصية الخياط وبعض آرائه الخاصة. وبعض آراء مدرسة بغداد الاعتزالية.

٢ - آثار الكتاب حفيظة الباحثين في علم الكلام للبحث عن شخصية ابن الروندي، وما أحاط بها من غموض كبير.

٣ - أغلب المتكلمين والمترجمين والدراسية المحدثين على القول بإلحاد ابن الروندي وطعنه في الإسلام. وهناك طائفة أخرى - معظمهم من الشيعة ومؤرخيهم - تعارض هذا القول وتجزم بحسن إسلامه.

٤ - انصب جهد المستشرقين الذين عنوا بشأن ابن الروندي على تمجيده وتصويره على أنه أحد أهم العوامل المحركة للحياة الثقافية في القرنين الثالث والرابع، وأنه مؤسس حركة التنوير والتفكير الحر في الحضارة الإسلامية.

٥ - لكتاب "الانتصار" قيمة علمية كبيرة تتلخص في تكثيف المعرفة بالمعتزلة وآرائهم وعلامهم والمساعدة في حل بعض مشكلات علم الكلام، وإظهار شخصية ابن الروندي ولفت الانتباه إليه.

٦ - كان لابن الروندي أثر كبير في الوسط الكلامي تجلي في نقل آراء الفرق ومقالاتها عنه، وتأثيره على بعض المتكلمين في بعض المسائل من أشهرها مسألة النبوة، وانتشار ظاهرة الرد عليه التي أصبحت قاسماً مشتركاً بين علماء الأمة جميعاً.

٧ - اشتمل منهج الخياط في الرد على ابن الروندي على طرق للجدل والإفحام أهمها: الدفاع عن المعتزلة بالتشنيع على خصومهم، والعودة بعلم الخصم إلى المعتزلة، والإفحام من كلام الخصم نفسه، والتهوين من شأن المآخذ بإثباته

في صورته الأشنع عند الخصم، وإثبات تناقض الخصم مع نفسه، وإسكات الخصم عن المأخذ بإثبات إشترائه في القول به.

٨ - هناك مسالك موضوعية سلكها الخياط للخروج من دعاوي ابن الروندي على المعتزلة منها: التكذيب وإنكار النسبة، والتفريق بين القول اعتقاداً والقول بحثاً، وبيان أن المقالة مما يشترك فيه جمهور المسلمين، والإيضاح والتأويل.

٩ - نالت قضايا الكتاب قدراً متفاوتاً من العناية بحسب موقعها في دائرة الخلاف بين المعتزلة والرافضة، وموقعها في الترتيب التقليدي لعلم الكلام، ومدي تركيز ابن الروندي عليها.

١٠ - اشتمل كتاب "الانتصار" على آداب للاختلاف وأصول للبحث العلمي، أهمها: وجوب المساواة في الاحتجاج للخصمين، والابتعاد عن اجتزاء النص وبتره، والتمييز بين صريح القول وما يلزم عنه، وجوب الامتناع عن التعميم، والاحتكام إلى المصدر في حال التوثيق عند الاختلاف، وجوب تحري الدقة في انتفاء الاصطلاحات الدالة.

١١ - شاب جهد الخياط في إقناع المخاطب بوجهة النظر الاعتزالية بعض مظاهر القصور أثرت على تحقيق الغاية كاملة من الكتاب. من أهم هذه المظاهر: البعد عن رد التهمة بإثبات أنها شركة بين المسلمين أو بين المعتزلة والخصم، وعدم القدرة على تقديم أدلة التساوي في الأقوال الشنيعة، والاعتراف الضمني بالتهمة مع الهروب من تنفيذها، وخفوت الروح الموضوعية في البحث والمناقشة.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

الأطير (حسني يوسف):

- المذهب الدهري عند العرب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

الأعسم (الدكتور عبد الأمير):

- تاريخ ابن الريوندي الملحد، منشورات دار الآفاق، بيروت ١٩٧٥م.

- ابن الريوندي في المراجع العربية الحديثة، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى،

١٣٩٢هـ = ١٩٧٨م.

بدوي (الدكتور عبد الرحمن):

- الإنسانية والوجود في الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.

- من تاريخ الإلحاد في الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥.

البصري (أبو الحسين):

- المعتمد في أصول الفقه، تحقيق محمد حمد الله، تعاون محمد بكر وحسن

حنفي، دمشق ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

البغدادي (عبد القاهر):

- الفرق بين الفرق، تحقيق محمد زاهر حسن الكوثري، القاهرة، ١٣٦٧هـ =

١٩٤٨م.

البلخي (أبو القاسم):

- ذكر المعتزلة من مقالات الإسلاميين، ضمن كتاب "فضل الاعتزال وطبقات

المعتزلة، نشر فؤاد سيد، تونس، ١٩٧٤م.

ابن تيمية:

- مقدمة في أصول التفسير، تحقيق الدكتور عدنان زرور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٢ م.

- منهاج السنة النبوية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م.

الجاحظ:

- رسالة في الهجاء، نشر الدكتور طه الحاجري، مجلة الكاتب المصري، فبراير ١٩٤٧ م.

- المختار في الرد على النصارى، تحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرفاوي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م.

جار الله (زهدي):

- المعتزلة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م.

الحاجري (الدكتور طه):

- مقدمة رسالة في الهجاء للجاحظ، مجلة الكاتب المصري، فبراير، ١٩٤٧ م.

خشيم (الدكتور على فهمي):

- الجبائيان أبو على وأبو هاشم، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٨ م.

الخطاط (أبو الحسين):

- الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والظعن عليهم، تحقيق الدكتور نيجرج، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٧ م.

خياطة (سليم):

- ابن الروندي. فذلكة عنه، مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٣١، قسم ٤، مجلد ٧٨.

الراوي (الدكتور عبد الستار):

- مدرسة بغداد المعتزلية الكلامية حتى القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، ربيع ١٩٧٤م.

أبو ريذة (الدكتور محمد عبد الهادي):

- إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م.

السببتي (الشيخ موسى):

- المحاكمة بين الخياط وابن الراوندي، مجلة النشاط الثقافي، السنة الأولى، العدد ٨، ١٩٥٨م.

الشهرستاني:

- الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار صعب، بيروت، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م.

صبحي (الدكتور احمد محمود):

- في علم الكلام. دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، الجزء الأول (المعتزلة)، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الرابعة، ١٩٨٢.

الصفدي (صلاح الدين):

- الوافي بالوفيات، نشرة الأستاذ ريتز، فيسبادن، ١٩٦١م.

العبد (الدكتور عبد اللطيف محمد):

- إصلاح النفس بين الرازي في الطب الروحاني والكرماني في الأقوال الذهبية،

دار الثقافة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦م.

- الفكر الفلسفي في الإسلام، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤٠٦ هـ =

١٩٨٦م.

عبد الجبار (القاضي):

- تثبيت دلائل النبوة، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، بيروت، ١٩٦٦.

- شرح الأصول الخمسة، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة،

القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م.

- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر،

١٩٧٤م، وطبعة الإسكندرية بتحقيق الدكتور على سامي النشار وعصام الدين

محمد.

- المغني في أبواب التوحيد والعدل:

• الجزء الخامس عشر (النبوات)، تحقيق الدكتور محمود قاسم بمراجعة

الدكتور طه حسين، القاهرة، دون تاريخ.

• الجزء السادس عشر (إعجاز القرآن)، تحقيق أمين الخولي بمراجعة

الدكتور طه حسين، القاهرة، ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠م.

القنوجي (أبو الطيب صديق):

- التاج المكلل في جواهر مآثر الطراز الأول، تحقيق عبد الحكيم شرف الدين،
بومبي، ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م.

كراوس (باول):

- ابن الراوندي، مقال ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، ضمن كتاب "من تاريخ
الإلحاد في الإسلام"، القاهرة، ١٩٤٥ م.

- كتاب الزمرذ لابن الراوندي - بحث منشور بمجلة الأديب، بيروت ١٩٤٣،
مجلد ٢، العدد ٩.

ابن المرتضي (أحمد بن يحيى):

- باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل، تصحيح توما أرند، دائرة المعارف
النظامية بحيدر آباد الدكن، ١٣٣٦ هـ.

نادر (أبيل نصرى):

- فلسفة المعتزلة. فلاسفة الإسلام الأسبقين، دار نشر الثقافة، الإسكندرية،
١٩٥٠ م.

ابن النديم:

- الفهرست، القاهرة، ١٣٤٨ هـ.

النشار (الدكتور على سامي):

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢.

الفيسابوري (أبو الرشيد):

- ديوان الأصول (في التوحيد)، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو رييدة.
طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م.

* *

